

رمزية حجة إبراهيم ﷺ في التاريخ

عبدالمجيد معاد يخواه

رمزية أم القرى

كم هي حافلة بالأسرار والرموز هذه الأرض الجافة والمحرقه، أرض تقع في وادٍ لا يرتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠ متراً، وعلى خطّ العرض ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة، وخطّ الطول ٤٠ درجة و ٩ دقائق مكة التي سمّتها أدبيات القرآن الكريم بـ «بكة»^(١) ولقبتها باسم (أم القرى) وما فيه من أسرار تثير الأسئلة^(٢)، في وادٍ ضيق تحيط به الجبال من كل ناحية. وكأن الطبيعة تريد أن تترك في نفس كل ناظر إظهار ما تتمتع به هذه الأرض من أمن!

قد لا نستطيع أن نجد حدثاً تاريخياً يوازي بالأهمية من بين الأحداث التي شهدتها مكة على مرّ التاريخ، حدث نزول القرآن الكريم، على الرغم من أن كل تلك الأحداث تستحق التوقف عندها، بحيث نرى أن الزمان والمكان قد توافقا، وبتقديرٍ إلهي، لاحتضان أهم حدث يجمع بين مكة ورمضان مع المعجزة الخالدة

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) الأنعام: ٩٢.

لأعز أبناء مكة وهوية الكتاب المقدس .
هنا سأسعى - وبالاستفادة من نحو مائة آية قرآنية - للإطالة على موقع مكة
ودورها من رؤية قرآنية .

رمز شرف مكة وعزتها

يمكن القول - و من دون تردد - : إن الذي ميّز مكة ، هذه الأرض المليئة
بالأسرار ، وأعطاه الشرف الرفيع بالمقارنة مع أيّ أرض مقدسة أخرى ، لم يكن
سوى وجود الكعبة المكرمة فيها ، إضافةً إلى أنّها المكان الذي ولد فيه
خاتم الأنبياء ﷺ الذي يعدّ بنفسه ميزة لا يمكن التغاضي عنها :

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا * الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾^(١)

ولست هنا ، في صدد الحديث حول ما دار من آراء وشكوك ، ولكن أشير إلى
دور الكعبة والمسجد الحرام في تميّز مكة ، وبتعبير أوضح ، العمل على تصنيفها من
آراء الشك والترديد . على الرغم من أن لهذه الأرض مميزات أخرى لا يجب
الاستخفاف بأيّ منها ، خصوصاً ولادة حضرة الرسول ﷺ الذي طهر مكة
والكعبة من لوث الشرك ، وأعلن الكعبة راية الإسلام الدائمة ، وقد توقفت عند
هذه الميزة على وجه التحديد ؛ لأن القرآن الكريم قد أكد عليها بوضوح ، وإذا ما
أغضينا النظر عن هذه النقطة ، فإننا لا نقلل لأي سبب من قيمة الامتيازات
الأخرى لمكة ، من هبوط آدم ﷺ ، إلى هجرة إبراهيم ﷺ وهاجر ﷺ ، وولادة
إسماعيل ﷺ ، والأخبار المتعلقة بتضحيته ، وصولاً إلى البعثة النبوية ونزول القرآن
الكريم .

لا أريد أن أحوّل هذا الموضوع أو البحث القرآني إلى موضوع سياسي ،
وليس لديّ دوافع في هذه الفرصة لأربطه بتقييم الحضارة الغربية في الدفاع عن

(١) البلد : ١ - ٣ .

حقوق الإنسان؛ لأن بحث هذه المسائل وتقييم عمل القوى الغربية العاشمة في هذا الإطار يختلف وله مجاله المختلف .

على الرغم من ذلك ، عندما نتأمل في دور الكعبة ومكة من وجهة نظر القرآن الكريم لا يمكننا التغاضي عن الآية التي تحدت بصراحة عن أن أول مركز قام أو أسس على فلسفة حماية حقوق الإنسان هو بيت الله وبشكل يشمل العالم كله . أريد أن ألفت النظر لمسألة واضحة ، حيث نرى اختلافاً واضحاً بين الآيات التي تتحدث عن المسؤوليات المتعلقة بالكعبة ، بالمقارنة مع الآيات التي تتحدث عن التكليف ، مثل الصلاة والصيام والزكاة والجهاد؛ إذ إن مخاطب القرآن الكريم في مثل هذه التكليف هم المؤمنون ، فيما المخاطب فيما يتعلق بالحج والكعبة هم الناس:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...﴾^(١)

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...﴾^(٢)

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ...﴾^(٣)

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً...﴾^(٤)

لا أريد هنا أن أبني هذا البحث القرآني على الاستحسان الذوقي ، لكن لا بد أن أتوجه إلى الباحثين والعلماء الإسلاميين لأسأهم: هل من الممكن عدم الاعتقاد بوجود حكمة من وراء كل هذه التأكيدات المتكررة للقرآن الكريم؟ إن البحث الدقيق حول هذه الملاحظة والجواب الأكثر إتقاناً على هذا السؤال يكمن في التقسيم الدقيق لمخاطبي القرآن الكريم؛ فأحياناً يكون الناس هم المخاطبون ، وأحياناً أخرى المؤمنون ، ومرةً أهل الكتاب ، وتارةً اليهود والمشركون ، إلى جانب المخاطبين

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) آل عمران: ٩٧.

(٣) المائدة: ٩٧.

(٤) البقرة: ١٢٥.

الخاصين، وخصوصاً المجموعة العظيمة من الآيات التي تخاطب شخص الرسول ﷺ. في هذه العجالة، لا يمكن التطرّق إلى الأسئلة والأجوبة، التي وضمن النظرة التطبيقية، تفترض التعاطي مع كمّ هائل من الآيات التي لكل مجموعةٍ منها مخاطب أو مخاطبين خاصين، مع ذلك، أعتقد - وبالتوقف أمام الآيات المتعلقة بالكعبة ومكة وفلسفة الحج - أننا ندرك بوضوح أن وجودهما أوسع وأبعد من مصالح ومنافع العالم الإسلامي، وتدخل فيهما مصلحة الإنسان بشكل عام. وأكتفي هنا بما تمّت الإشارة له فيما سبق، على أمل أن يستطيع العلماء الكبار والمفكرون الملتزمون في العالم الإسلامي يوماً القيام بهذا الدور اللائق بهم. كيف يمكن القبول بهذا الهوان، بأن يتولّى آخرون الدفاع عن حقوق الإنسان وأن يحقروا العالم الإسلامي أحياناً؟ ألا يجب على العالم الإسلامي أن يعلن مرفوع الرأس أن أول مركز بني على أساس الدفاع عن حقوق الإنسان هو في أرضٍ مباركة اسمها مكة؟ ألا يجب أن نسعى للتذكير بهذه الحقيقة المنسية وأن ندفع ضريبة ذلك حتى؟

الخبز والأمن للجميع

أتوقف هنا عند مسألة جاءت في دعاء إبراهيم عليه السلام خليل الله، محطّم الأصنام الكبير وباني الكعبة، الذي طلب من ربّه في دعائه أن يوفّر الأمن والرزق لجميع المؤمنين الذين سيعيشون في مكة، وفي جوابٍ على دعائه، نتوقف عند نقطة لا يجب التجاوز عنها ببساطة:

﴿وَ إِذْ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدًا اٰمِنًا وَّ ارْزُقْ اَهْلَهُ مِنْ الشَّرٰتِ مَنْ اٰمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَّ الْيَوْمِ الْاٰخِرِ قَالَ وَّ مَنْ كَفَرَ فَاْمَتُّهُ قَلِيْلًا ثُمَّ اَضْرَطُّهُ اِلٰى عَذَابِ النَّارِ وَّ يَنْسِ الْمَصِيْرُ﴾^(١).

(١) البقرة: ١٢٦.

في القراءة الدقيقة لهذه الآية، نرى أن إبراهيم الخليل ﷺ قد طلب الرزق لجميع الذين يعتقدون بالله وباليوم الآخر، ومن دون شك، فإن الله في الردّ على دعاء خليله قال: حتى الكافرين منهم، لن أمنع عنهم الرزق، وهذا ما يستدعي التأمل والتفكير الكبيرين، وهنا أكتفي بما ورد وأشار إلى أنه كلما ذكر دور مكة تمّ التأكيد على موضوع الأمن، وحلّ مشكلة الجوع أكثر من مرة، وهذا ما نشاهده في سورة قريش بتعبير واضح:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).
أعتقد أن الجوع والخوف من أهم المشاكل التي تواجهها أمة حضارة، والأدبيات القرآنية أكّدت على هاتين المقولتين باعتبارهما وسائل تدخل في خدمة السياسة والثقافة الشيطانية:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾^(٢).

(١) قريش: ٣ - ٤.

(٢) البقرة: ٢٦٨.

إن الحكومة الشيطانية استغلّت حالات الفقر والجوع من أجل استعباد الإنسان، وإذا ما استطعنا القضاء على الفقر والخوف في العالم، فلن يعود هناك مكان للظالمين وتجبرّ الفراعنة، إذ إن توفير الأمن والرزق الكثير ينتهي بالقضاء على سلطة فرعون وقوّته.

أعتقد أنّه كلّما نظرنا إلى أسباب ونتائج الفقر والخوف من رؤية قرآنية فإننا نتوقف أمام مكة التي امتازت بالأمن وكثرة الرزق بشكلٍ مختلف، وفي هذه النظرة، يأخذ الأمن والرزق الكثير في هذه المدينة المقدسة - حول الكعبة - مفهوماً رمزياً لا تحدّه أرض!

أبعاد الأمن في أرض مكة وحرمة

لا بد قبل طرح مسائل أخرى حول مكة والكعبة، أن أشير إلى ضرورة عدم اعتبار أمنها مسألةً بسيطة؛ لأن أمن هذه الأرض مليء بالأسرار والرموز؛ إذ يشمل ما هو أبعد من الإنسان والحيوان، وبغض النظر عن كلّ الأسئلة الفقهية، أستذكر الآيات التي تحذر كلّ محرم من صيد أيّ حيوان، وتفرض على كل مرتكبٍ لمثل هذا الجرم عقوبةً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا...﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بِالْعِزَّةِ أَوْ كَفَّارَةً

(١) المائة: ١-٢.

طَعَامٌ مَسَاكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ
غَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١﴾.

مشاهد الحج المتكررة

في الحديث عن الشعائر المتعلقة بمكة وتمايزها عن العالم الإسلامي
لاحتضانها الكعبة ما جعلها تشهد طوال السنة حضور ملايين الأشخاص العاشقين،
وأَيِّ مكانٍ للعبادة يمكن مقارنته بالكعبة، بحيث يطوف حوله العاشقون طوال
السنة؟ ولا يترك الطائفون تطوافهم سوى خمس مرات - عند إقامة الصلوات
الخمسة - ليفسحوا المجال أمام المصلين .

لاحقاً، وفي الجزء المخصص لـ (القبلة)، سأذكر علاقةً أخرى بين مكة
والكعبة مع العالم، إذ لا مجال لذكرها هنا .

إن الحديث هنا عن ملايين العاشقين الذين - وتلبيةً لدعوة إبراهيم عليه السلام -
يبتعدون عن بيوتهم وأوطانهم ويسارعون نحو مكة .

﴿وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَ آذِنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ
عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ
فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ
الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيُقْضَىٰ لَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٢) .

تأمل في التضحية

كتب الكثير عن فلسفة الحج، وقد سعى مفكرون كثيرٌ لإزاحة اللثام عن
الأسرار المجهولة للحج! لذلك لم أدخل هنا في هذا الجانب، لأشير إلى المشهد

(١) المائدة: ٩٥ .

(٢) الحج: ٢٦ - ٢٩ .

العظيم للحج الذي تشهده مكة كل سنة كما لو أنه المحشر .

فالحضور المتكرر لملايين الموحدين في هذه الشعائر العظيمة ، يساعد على إيجاد الترابط بين الأجيال والعصور ، وأحياناً يبرزه ، وهو الذي استمر من عصر إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وسيستمر في المستقبل ، احتفالاً للدفاع عن الحق ورفض الظلم على طول التاريخ ، لا يمكن أن يتراجع أو ينكسر أو يهزم ، ومكة من زاوية النظر هذه محيطٌ عظيم ، تتحوّل إلى طوفان مع كل فصلٍ للحج ، وتفتح أفقاً واضحاً أمام المفكرين ؛ أفق واضح يبشر باليوم الذي سيختبر فيه الإنسان حياةً أخرى ينتشر فيها الأمن ، ولا يستسلم أيّ إنسان فيها أمام الظالمين بسبب الخوف والجوع !

أكتفي بهذا القدر عن مناسك الحج ؛ لأشير إلى نقطة تتعلق بالتضحية ؛ ففي فلسفة التضحية ، لا يجب أن ننسى البعد القرآني في الإشارة لموضوع التضحية في حياتنا اليومية ، إذ علينا التفكير في رمزية الامتياز الذي أعطي لنا بالتضحية بالحيوانات لتأمين ما نحتاجه .

بتعبير أوضح ، يجب أن نسأل أنفسنا: كيف أن الإنسان يعطي لنفسه الحق أن يضحّي بالحيوانات في سبيل تغذية نفسه؟

لا يجب العبور عن هذا السؤال عبور الكرام ؛ لأن منطق أولئك الذين يرفعون شعار حقوق الإنسان ويصرون على فصله عن علاقته بالاعتقاد الذي يتجاوز الإنسان ، أعتقد أنّهم هنا يواجهون مشكلة .

من دون أن أدخل في مسائل لا علاقة لها بالموضوع مباشرة ، أشير إلى الآية الأولى من سورة المائدة التي تتضمن عدة عبارات ، لا يبدو أنّ هناك رابطاً بينها ظاهرياً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ... ﴾ .

ما هي العلاقة بين التأكيد على الوفاء بالعقود وبين جواز تغذي الإنسان من لحم البهائم؟ ألا يعتبر هذا الحدس منطقياً أو عقلياً، أي إن الأرضية لمشروعية التضحية بالبهائم - في سبيل تأمين حاجات الإنسان الغذائية - ليست سوى امتياز الإنسان المؤمن أو الملتزم؟

بتعبير أوضح، إنّه امتياز الإنسان الملتزم بالعهد الذي ارتقى به إلى مستوى أعلى جعل من التضحية بالمخلوقات الأخرى من أجله مشروعاً وعقلانياً. أرى أننا - ومن أجل البحث حول مثل هذه الأسئلة والأجوبة المعقدة - بحاجة إلى فرصةٍ أوسع، ومع ذلك، فالدافع الذي حدا بي للإشارة إلى هذه النقطة، التذكير بأسرار ورموز في فلسفة التضحية التي لم أر حتى الآن أن أحداً من المفكرين قد تطرّق إليها.

كلّما نظرنا إلى العلاقة بين التزام الإنسان وامتيازه - في أكل اللحم - من هذه الزاوية، نجد فرصةً جديدةً أو أخرى للنظر إلى عيد الأضحى ومراسم التضحية، وفي هذه النظرة، عيد الأضحى هو أيضاً احتفال بأكل اللحم! ليس من أجل التلذذ بطعمها، بل من أجل التذكير بالمكانة الرفيعة للإنسان.

لكن لا يجب أن ننسى أنّه إذا كنا نحتفل بمشروعية التغذية بلحم البهائم - كدليل على علو الإنسان - فيجب أن نعلم أن هذا العلو مرتبط بالالتزام الإنسان! الالتزام الذي يفرض عليه احترام حقوق الآخرين، وأكل اللحم لا يمكن فصله عن إطعامه للجائعين، ومن الممكن أن يكون هذا سبباً في أن الآيات القرآنية على الدوام - فيما يتعلّق بالتضحية - قد تحدثت عن أكل اللحم مقروناً بإطعامه للجائعين.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ .

العلامات والرموز في أرض مكة

التضحية - التي ذكرت بوصفها من شعائر الله - حالها كباقي مناسك الحج الأخرى التي يعتبر إحيائها دليلاً على القلوب المفعمة بالتقوى ، بلا شك فإن كل واحدة توحى بمفاهيم سامية أبعد من أي لون من ألوان الارتباط أو التعلق ، إلهية وغير محدودة (أو لا يمكن حدها)! فما يجري أيام عيد الأضحى في منى يعبر عن ثقافة تبرز في سورة المائدة؛ ثقافة الالتزام والمسؤولية في العلاقة بالآخرين والابتعاد عن النظرة الضيقة والتفرد الذي يجعل قسماً من عباد الله محرومين من المائدة الواسعة لنعمة .

وكلما كنا غير غرباء عن هذه الثقافة وأدركنا منطقتها جيداً ، فإن علينا إعادة النظر في وضعنا الحالي ، فطالما نشاهد علامات الجوع والخوف والتمييز الظالم والفسل الإنساني في العالم الإسلامي ، فإن علينا الاعتراف بالغرابة عن ثقافة الحج! لا يمكن القبول فقط بأن نسوق أعداداً كبيرة من الأضاحي إلى المذبح .

بلا شك ، إن مراسم احتفال الأضحى العظيم من المفاخر الكبرى للعالم الإسلامي ، وتعطي الدليل على الحضارة والثقافة المغايرة للخوف والجوع .

من خلال التوقف أمام سورة المائدة والرسائل المحورية لها - المنعكسة أيضاً في اسم السورة - لا يبقى مجال للتردد أو الشك ، إن مشروعية تغذية الإنسان من لحم المخلوقات الأخرى مرتبط بالالتزام ، أفهل يعقل أن يوجد إنسان متدين وملتزم بلا موقف في مقابل جوع الآخرين؟

(١) الحج: ٣٤-٣٧ .

إن مائدة النعم الإلهية واسعة وملئية بالنعم والخيرات، لدرجة أنه إذا لم يتناول عليها المتسلطون الأثانيون ويضيّقوا المكان أمام الآخرين، فلا إمكان أن نشاهد ضائقة أبداً، أناساً إلى جانب هذه المائدة يجترّون مرارة الجوع!

نتجاوز عيد الأضحى ومنى والهدى، نقول: هناك في كل أنحاء مكة علامات جلية لا يجب العبور عن رمزيتها وأسرارها ببساطة! مقام إبراهيم عليه السلام، موطن أقدام باني الكعبة العظيم - في إعادة بنائها - كلّها تشي بعلو مكانة الإنسان؛ فعندما يتحدث القرآن الكريم عن العلامات الجلية لله في أرض مكة، فإننا بلا شك ندرك خصوصية مقام إبراهيم عليه السلام وكأنه أبرز العلامات التي توحى بالعلاقة الحميمة بين الله وهذا البحث المميز عنده، وهنا يواجه العقل سؤالاً وهو:

ما هي الحكمة والفلسفة من تأكيد القرآن على مقام إبراهيم عليه السلام؟ ولماذا نحن مطالبون - بعد الطواف حول الكعبة - بالصلاة بالقرب من هذا المقام؟

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(١).

لا أريد أن أتطرق مرّة أخرى إلى جزء من فلسفة الحج، وما أستذكره هنا مجبراً، الضرر الذي تسببه الغفلة والتفكير المبسط الذي نرى آثاره في تصرفاتنا، ألا يجب علينا أن نتفقد تصرفاتنا المتحجرة، التي تدفعنا إلى التكلف والألم - نحن والآخرين - عند الصلاة بالقرب من مقام إبراهيم من دون أن يكون لدينا هم التأمل في هذه العبارة القرآنية!

من دون شك ليس هناك خوف إذا حدث أثناء الحج - في الصلاة بعد الطواف - أن ابتعدنا عدّة أقدام عن مقام إبراهيم عليه السلام، فالخوف الكبير هو من الغفلة التي بسببها ابتعدنا فراسخ عن مقام إبراهيم عليه السلام من دون أن نهتمّ أو يكون لدينا هم ذلك!

(١) البقرة: ١٢٥.

التأكيد المتكرر للقرآن الكريم في اتباع دين إبراهيم ﷺ، يدل على الاهتمام بتعميم وتعميق ثقافة إبراهيم ﷺ:

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

عندما أتحدث لاحقاً عن مكة سأركز على خاصية وجود قبلة المسلمين فيها، وسأذكر خصائص أخرى عن دين إبراهيم ﷺ وثقافته، أما الآن فأتوقف عند الإشارة إلى نقطة حول الصفا والمروة.

موطىء أقدام السيدة الكبيرة بالقرب من الكعبة!

بالتأمل في شعيرة الصفا والمروة والسعي بينها بعد الطواف، ألا يمكن الوقوف على محصلة: أن القرآن الكريم في ثقافته وأدبياته لم يحصر القيم الإنسانية فقط بالرجل!

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾.
إذا كان الاختلاف في الجنس قد أوجد الأرضية للاختلاف في دور المرأة والرجل، فلا يوجد أيّ اختلاف بين الجنسين إذا أردنا الاستفادة من نبع الحياة الصادق! ففي مكة، نشاهد مقام إبراهيم ﷺ على بُعد خطواتٍ من الكعبة، وعلى بعد خطواتٍ أخرى، نشاهد الصفا والمروة التي تذكّر بسعي الأم التي ربّت إسماعيل في حضنها.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾^(٢).

ألا يمكننا أن نجد في هذا التعبير القرآني الذي استخدم الطواف للتعبير عن

(١) البقرة: ١٣٠-١٣١.

(٢) البقرة: ١٥٨.

السعي دليلاً على اهتمام القرآن الكريم واحترامه لجهد تلك السيدة العظيمة؟ وبما أنني آليت على نفسي أن ألتزم بمحدود ما جاء في القرآن الكريم، أجد نفسي مجبراً على التغاضي عن الإجابة على مثل هذه الأسئلة، وعلى الرغم من ذلك، أغتم الفرصة لأرد على المشككين الذين يتهمون الإسلام والقرآن الكريم بالتمييز الجنسي.

وللاشارة، إلى أنه كلما تأملنا في تاريخ الأنبياء في القرآن الكريم، نواجه حقيقة مهمة غير معروفة في السلسلة العظيمة للأحداث، إذ نرى أن نساء أعظمت في لباس من العفاف قد لعبن دوراً مميزاً، أليست سلسلة تاريخ الأنبياء قد أنتجت حلقة من تاريخ الإسلام بدأ من ثورة موسى بن عمران وصولاً إلى المسيح بن مريم الذي أكملها؟ أليس أيضاً في تتبع مواطىء أقدام موسى، قد جرى الحديث عن دور الأم التي ربته؟^(١) والأوضح من ذلك، دور زوجة عمران التي هزّت العرش الإلهي بدعائها! وكانت نتيجته وجود مريم التي أوجدت تحولاً كبيراً!^(٢)

في خلاصة ما تمت الإشارة إليه، يمكن القول: إن الاختلاف الوحيد بين الرجل والمرأة، هوستر أو حجب دور النساء الكبار اللاتي لم يتواجدن على مسرح الأحداث علناً، قد يكون ممكناً من خلال التفكير العميق في هذه المسألة، أن نتوصل إلى رمز الاختلاف بين مقام إبراهيم عليه السلام ومواطىء أقدام زوجته التي صنعت تاريخاً أيضاً. ومن دون الإطالة في هذه النقطة كثيراً، أعتبر أن البحث حول علاقة الصفا والمروة بدور هذه المرأة العظيمة من أهم ضروريات البحث والتحقيق.

الحج، رمز لعلاقة الإنسان بالله

إذا صرفنا النظر عن الأسرار والرموز المعروفة وغير المعروفة لعرفات والمزدلفة والمشعر الحرام ومنى، في النتيجة يمكن القول: إنه عندما نقوم بمناسك

(١) القصص: ٧.

(٢) آل عمران: ٣٥.

الحج على أكمل وجه ، يجب أن نرى أنفسنا - بعد إتمامها - في ظلّ الولاية الإلهية .
﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١) .

لا أريد هنا أن أتناول جميع النقاط التي وردت في هذه الآيات من القرآن الكريم حول الحج ، فالحديث هنا عن انتهاء مناسك الحج ، عندما يبدأ حجاج بيت الله بالعودة ، لقد كانت قريش في الجاهلية لوثت مراسم ومناسك الحج بالتمايز الطبقي ، وإئنا نرى بوضوح تأكيد القرآن الكريم المكرر على المساواة - خصوصاً فيما يتعلق بالكعبة - ولندع مسألة كم لحق بمفهوم المساواة الذي كان أحد شعارات الرسول ﷺ الأساسية والمحورية من أضرار أثناء الفتن في التاريخ الإسلامي !
أختصر تشعبات هذا البحث في نقطة وهي: إن القرآن الكريم قد ذكر الحجاج بكثيرٍ من الصراحة والشفافية أنه عند الإنتهاء من مناسك الحج يجب أن يُشعروا أنفسهم وكأنهم في فضاء ولاية الله ، وفي الحد الأدنى أن يعتبروا علاقتهم بالله مثل علاقة الولد بوالده ، وإذا طبقنا الحج على هذا المستوى فلا يمكن تسويغ قبول العالم الإسلامي بنفوذ وتسلط الآخرين !
كيف يمكن القبول بأن لا يعمد ممثلو الملايين من العالم الإسلامي - بعد انتهاء

(١) البقرة: ١٩٧-٢٠٢ .

مناسك الحج - إلى اختبار الولاية الإلهية، ومن دون أن يخطو خطوات جديدة على طريق كسر العلاقة مع الولاية الشيطانية؟

هذا السؤال الانتقادي، لا يعني عدم القول بأي اعتبار لدور الحج في الظروف الحالية، نحن نفتخر حتى الآن بعظمة الحج ونرفع رؤوسنا، أن قبله المسلمين - طوال السنة - تبقى كمثل الجوهرة يطاف حولها وخصوصاً في مراسم الحج، وكأن عرش الله صار على الأرض، وأن ملايين المؤمنين العاشقين - كالفراشات - يدورون حوله، مع ذلك، لا يمكن الإغضاء عن الفرق بين الحج المطلوب والحج الموجود! وإذا ما قارنا حجنا بالمعايير القرآنية، عندها يجب أن نسأل أنفسنا، هل نحن نعيش في فضاء الولاية الإلهية؟ ألا يثقل ظل الولاية الشيطانية على العالم الإسلامي؟

مكة ومكانة قبلة المسلمين

بعيداً عن مناسك الحج، نجد أن أرض مكة قد امتازت بشيء آخر - كما ورد في القرآن الكريم - فإذا اعتبرنا أن عدد الذين يطوفون حول الكعبة بالمقارنة مع مؤمني العالم الإسلامي يعتبر قليلاً، فإن للكعبة، إلى جانب الحج، علاقة أخرى مع المسلمين لا تقبل الحد!

كل يوم يتجه مئات ملايين المسلمين معاً خمس مرات نحو الكعبة، لا أريد هنا أن أناقش ما يتعلق بالقبلة في هذه العجالة، لكن الذي لا بد من الإشارة له هو غفلة الكثير من المسلمين المصلين عن دور القبلة.

فإذا تأملنا في الآيات القرآنية المتعلقة بالقبلة بشيء من الدقة، لا شك أننا سنخجل وننكس الرؤوس من النظرة السطحية والبسيطة! لأن منطق القرآن الكريم يرى أن كل مجتمع أو حضارة بحاجة إلى قبلة تحدّد بها هويته، قال تعالى:

﴿وَلئنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...﴾^(١).

ومع أن الحديث في هذه الآية عن قبلة المؤمنين، لكن يبدو أن هوية كل واحد من المجتمعات يرتبط بقبلة محددة وخاصة به، بحيث إن أيّاً منهم لا يقبل بقبلة الآخر.

ولكن عندما نتأمل في مجموع الآيات المتعلقة بتحويل القبلة وفلسفتها، لا شك أنه لا يمكن القبول بعدم وجود دور للقبلة في توحيد اتجاه المعتقدين بها في أيّ مجتمع أو حضارة، وأعتقد أن هذا السبب هو الذي جعل القرآن يعبر في آية أخرى عن القبلة بتعبير أشمل وهو (الوجهة):

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾^(٢).

من دون شك، يبدو من غير الممكن إيجاد مجتمع أو حضارة من دون توحيد أفرادها حول هدفٍ خاص، كلّ حضارة ومجتمع لا بد أن يكون لديه أهداف مشتركة يجب تبلورها في رمزٍ ما. والآن أين نجد حضارةً في التاريخ توحدت حول

(١) البقرة: ١٤٥.

(٢) البقرة: ١٤٨.

رمز؟ إلى الآن - وبعد قرون - نجد أن الكعبة قد وُحِّدَتْ نحوها أجيالاً لا يمكن إحصاؤها! أيّ أرض يمكنها أن تفخر بأن يكون لديها مثل هذه الرمزية؟ مع ذلك، يجب أن نتوافق مع هذا السؤال الانتقادي أو المنتقد: ماذا حدث لنا - وعلى الرغم من أن لدينا مثل هذا الرمز الذي نتجه نحوه - نعاني من التفرق؟ هذا الألم مع من يمكنني أن أطرحه غير نفسي، بحيث إن كل يوم ولخمس مرات يقوم أكثر من ربع سكان الأرض بالتوجه نحو القبلة من دون أن نستطيع الاستفادة أو من دون أن نبذل أي جهد في هذا التوحد العظيم!

الذمن الكبير لتحويل القبلة

كما أسلفت الذكر، لا أعتقد أن الفرصة هنا تسمح بالتطرق إلى الموضوعات الكثيرة حول القبلة؛ لأن الحديث عن ميزة أو امتيازات أرض مكة في القرآن الكريم أو من خلاله، والتي يسطع فيها حرماً هو أفضل قبلة للمؤمنين لا يتسع له الحديث هنا! ولولا عددٌ من المتصدين غير الصالحين للأديان، وما يعانون منه من العناد والانفراد أو التفرد، لن يكون أفضل من أن تجتمع كل الأديان والمؤمنين بها حول هذا البيت الذي يعتبر تذكراً من إبراهيم الخليل عليه السلام، الرسول الذي يعتبر الأب الكبير لكل الأديان ولا يداخله أي لون من اليهودية أو النصرانية.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

أعتقد أنه لا يوجد في العالم الإسلامي حتى الآن دراسات وأبحاث حول القبلة بشكل ما! فمن دون شك تم إنجاز أعمال قيمة وكثيرة حول هذا الموضوع،

(١) آل عمران: ٦٧.

لكن مع ذلك هناك مجال لأعمال جدية أكثر، أرى أن إنجازها يتعلّق بمشاركة مفكّري العالم الإسلامي، خصوصاً وأن المواجهة بين قبلة كلّ طرف - لدى المحاضرات - يهدد الآن السلام العالمي! لذا نحن بحاجة إلى حوار أشمل من العالم الإسلامي.

ما أركّز عليه في هذه الفرصة، هو السعي الذي بذله خاتم الرسل ﷺ على طريق منع الحرب والعنف، مداراة أهل الكتاب، والتوجه معهم نحو قبلة واحدة - خلال سنوات من عصر البعثة - وهذا ما يستحق التوقف عنده؛ لأن الثمن الكبير والثقل لتحويل القبلة كان عندما وصلت المساعي السلمية إلى طريق مسدود، وهذا ما لم يدرك جيداً، وهنا ألفت نظر العلماء الأجلاء إلى سؤال هو:

ألا يوجد علاقة بين آيات تحويل القبلة^(١) وآيات الجهاد والشهادة؟^(٢) الجواب على هذا السؤال يتعلّق بسؤالٍ وجوابٍ آخر: هل يمكن التفتيش أو البحث عن انسجام بين موضوعات القرآن المتفرقة ظاهرياً؟

أعتقد أن كل سورةٍ من القرآن الكريم تحمل رسالةً محددة خاصة يمكن تلمّس أثرها في اسم هذه السورة، لا يمكن لي هنا أن أتطرق إلى تسوية هذه العقيدة، وأرى نفسي مجبراً على الاكتفاء فقط بالإشارة إلى أن الجهاد في عصر البعثة كان - قبل كل شيء - ثمناً لاختيار الكعبة كقبلة للمسلمين، ويمكن لهذا السبب أن نتوقف عند ما جاء في الآيات التي تلي آيات تحويل القبلة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا

(١) البقرة: ١٢٤-١٥٢.

(٢) البقرة: ١٥٣-١٥٧.

تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١﴾.

لا أصرّ على هذا الاعتقاد، وأرى أن أيّ حكم يجب أن يكون في إطار الحوار حول أسباب ونتائج تحويل القبلة، وألفت إلى أن مصير أي حضارة على علاقة أو يتبع القبلة التي تتجه نحوها. وفي حوار الحضارات أيضاً، وقبل أي شيء، يجب تعريف قبلة كلّ من الحضارات، وهنا أعود لأشير إلى نقطة كنت قد بدأت بها هذا البحث: إنّه إذا قبلنا أنّ الكعبة هي أول مركز أو مؤسسة قامت للدفاع عن مصالح الناس، عندها يمكننا إدراك إحدى الأسرار المجهولة لتحويل القبلة!

مقارنة القبلتين

أرى أنّه لا بد هنا من الإشارة إلى نقطة تفرض نفسها كلّما تطرق الحديث لموضوع القبلة، وهي المقارنة بين الكعبة والمسجد الأقصى، ويمكن من خلال هذه المقارنة التوصل إلى عدة رموز وإشارات تكشف الاختلاف بين هاتين القبلتين، وأعتقد أنّه لو لم يكن يوجد لدى دعاة التفرد والمتعصبين العرقيين من اليهود خصلة إشعال وتسعير الحروب، فإن مصير هاتين القبلتين كان على غير ما هو عليه الآن.

من الواضح أن البحث في هذا المجال يمرّ عبر دوائر التاريخ المتعلقة باليهود، وكذلك فإن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بهذا البحث لا يتسع لها المجال هنا، وأكتفي بالإشارة إلى أن قسماً من سعي الرسول ﷺ في عصر البعثة كان يصبّ في إطار منع المواجهة بين القبلتين، وبما أنّني ألزمت نفسي في هذا البحث أن أستعين بالآيات

(١) البقرة: ١٥٣-١٥٤.

القرآنية، فإنني أشير إلى نقطة قرآنية هي أن القرآن الكريم قد عرّف المسجد الحرام والمسجد الأقصى على أنّهما مبدأ وانتهاء الإسرائ الليلي للرسول ﷺ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

أرى أن مسافة إسرائ الرسول ﷺ - أي في البعد الأرضي للإسرائ والمعراج - قد حدّدت بالفاصلة أو المسافة بين القبلتين، فهل يمكن من خلال التأمل في مسافة الإسرائ التوصل إلى أن في فلسفة الإسرائ لم يتم تجاهل التجارب التاريخية للأديان؟ لا يمكن الإجابة على مثل هذه الأسئلة في هذه الفرصة. لكن ما أراه واضحاً هو العلاقة بين القبلتين في أدبيات القرآن الكريم والسيرة النبوية، وبلا ترديد إذا لم يكن القيمون على الأديان يعانون من التعصب والتفرد، كان من الممكن إيجاد أرضية السلام والوحدة من خلال القبول بالكعبة على أنّها أثرٌ من إبراهيم عليه السلام.

من خلال التأمل في أكثر من ٢٠٠ آية في سورتي: البقرة وآل عمران، يمكننا التوصل إلى نتيجة واضحة حول السبب الذي أوصل مساعي رسول الرحمة ﷺ السلمية إلى طريق مسدود؟ خصوصاً إذا توقفنا عند رسالة الآيات التي تتحدث عن عمران المساجد وتخريبها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

(١) الإسرائ: ١.

(٢) البقرة: ١١٤.

ولا شك أن الحديث في هذه الآيات ليس عن التخريب الظاهري للمساجد،
إنما عن تلويث أماكن عبادة الله بالتسلط والتفرد الجاهلي وعبادة الأصنام،
خصوصاً عندما نعيد النظر في الآيات السابقة، نرى بوضوح أن القادة الظالمين
والمتعصبين يقرّرون أن سعادة الإنسان مرتبطة بهذا الدين أو ذلك؛ فهذا يقول: لا
أحد يدخل الجنة غير اليهود، وذاك يقول: النصرانية هي الطريق الوحيد
للسعادة، وكل من هو غير نصراني فهو في الجحيم، والقرآن الكريم، في مقابل هذا
التضاد، يطرح طريق إبراهيم ودينه الحنيف الذي يتوازن بين كلا الدينين! ألا
يشكل هذا تعبيراً عن مساعي السلام ولقطع الطريق أمام العنف وأبشع حروب
التاريخ؟

ومن دون التوقف كثيراً عند هذه النقطة أعود لأؤكد على مسألة وردت في
الآية السابقة، فالقرآن الكريم يصف الذين يسعون إلى تفريغ المساجد من محتواها
الأصلي ويسعون إلى تخريبها، بأنهم أشدّ الظالمين، لذا لا يجب التجاوز عن هذا
التعبير العميق ببساطة! لماذا يعتبر ظلم القادة الدينيين غير الصالحين أشدّ وطأةً
وأثراً من ظلم الظالمين في التاريخ؟

وهنا أذكر نقطة واحدة هي: كلّما تصفحنا أوراق تاريخ الحروب والعنف برؤية
معمقة، لا يمكن مقارنة أيّ حربٍ مع الحروب الدينية! فالجروح الناتجة عن
التعصب الديني والتي أصابت جسد الإنسانية أشدّ إيلاًماً من أي جرح آخر،
واليوم عندما ننظر إلى أرض فلسطين، نرى أنّها تعاني من قسوة قلبٍ وعداوة لا
يمكن إيجاد نظير لها في التاريخ يمكن مقارنتها به.

قد يكون السبب الذي منع رسول الله ﷺ من أن يكون له قبلة واحدة مع
اليهود هو جور وعداوة القيميين على المساجد، الذين أفرغوا بيت المقدس من
محتواه، دون التقليل من أهمية الخصائص التي تتمتع بها الكعبة، هذه الملاحظة

تستحق التوقف عندها - المواجهة بين القبلتين - وكأنها مواجهة بين خطين وثقافتين: خط وثقافة الرسول ﷺ الذي نادى بالعدالة، خط وثقافة قادة أنانيين استغلوا الدين للتمييز! فيما وضع القرآن الكريم مسألة النضال ضد القوى المشتركة على أنه رسالة كل الأديان الإلهية^(١).

من هنا نرى أن تجار الدين قد تولوا أمور بيت المقدس واستغلوا عباد الله كعبيد لهم:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢).

مكة والكعبة في نظرة تاريخية

سوف أعمد هنا للحديث عن المسار التاريخي لمكة والكعبة - من رؤية قرآنية - خصوصاً مع الأخذ بعين الاعتبار ما ذكرته عن الضرر الذي لحق ببيت المقدس، وهنا يتسع المجال لهذا السؤال: هل كانت الكعبة بعيدة عن الضرر؟ ألم تتحوّل في الجاهلية قبل الفتح إلى بيتٍ للأصنام؟

يمكننا من خلال التوقف عند المسيرة التاريخية للكعبة أن نوفر أرضية الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، خصوصاً مع التوقف عند التزام إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام بتطهير الكعبة، وأن نتعرف على أبعاد وجوانب أخرى من

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) آل عمران: ٧٩ - ٨٠.

حصانة الكعبة .

قبل الحديث عن دور الأب والابن في تجديد بناء الكعبة، يجب الإشارة إلى أن أحد امتيازات الكعبة قَدَم البناء، وأن قدمها يعود إلى ما قبل إبراهيم - كما ورد في القرآن - وقد لُقبَت بـ (البيت العتيق)، وهنا نشاهد الظل الثقيل للتمييز الذي يسيطر على دراسات الجامعات الغربية في مجال الآثار (الأركولوجيا)، والذي يتطلب جهداً حثيثاً لفضحه، ومن المحزن جداً أن الكثير من مفكرّي العالم الإسلامي أيضاً تحوّلوا إلى تابعين ومستخدمين لدعاياتٍ تقدّم تحت اسم العلم والبحث، وتصرّ على تزوير الحقائق التاريخية بشكلٍ أعمى . وهنا أكتفي بهذا المقدار من دون التوسع في شرح هذه الفاجعة الثقافية .

عندما نقارن بين مقدار الأعمال التي أنجزت - في الأكاديميات العالمية المشهورة - حول فلسطين وبيت المقدس، وبين الأبحاث التي جرت حول مكة والمدينة، ألا نشاهد دليلاً واضحاً على تأمرٍ لا يبعث فينا الإهتمام؟ وإذا ما قرّرنا يوماً أن نعمل على إبطال المؤامرات الصهيونية، فإن علينا الاستعانة بجهود العالم الإسلامي في ذلك، وإذا كنا اليوم لا نستطيع منافسة الآخرين في هذا المجال، فإننا على الأقل قادرون على فضح الأيدي الظاهرة والخفية للذين يسعون لفرض هويةٍ على الشعوب والمحاضرات تتناسب مع مصالحهم وأذواقهم .

على أية حال، إن إثبات قدم الكعبة - كعنوان لأول مركز توحيد يمدافع عن مصالح الناس وحقوقهم - ^(١) مرتبط ومترافق مع الجهاد العلمي والثقافي؛ لأن ما نراه في القرآن الكريم ليس أكثر من تعابير مبهمّة حول قدم الكعبة قبل إبراهيم عليه السلام .

(١) آل عمران: ٩٦.

تجديد أو إعادة بناء الكعبة

إذا ما كانت الكعبة - ومن دون شك ، قبل إبراهيم أيضاً - مكاناً لعبادة الله ، إلا أن أخبارها الواردة في القرآن الكريم ، يزداد عددها ووضوحها من اليوم الذي ترك خليل الله ﷺ جزءاً من عائلته وأولاده في ظلّها .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

مانشاهده في هذه الآيات بوضوح اعتقاد خليل الله ﷺ بأن أرض مكة قد اختيرت كحرم آمن ، لكي يوفر لأبنائه حصانة في ظلّ الكعبة في عالم مليء بالشرك . أكتفي بهذه الإشارة لما ورد في دعاء إبراهيم ﷺ تاركاً ما خفي منها؛ فأبراهيم ﷺ في أرض مكة المحرقة الجافة ، كان لديه رؤية واضحة خلال التاريخ ، وكان يعقد الأمل على نسل إسماعيل ﷺ - في إقامة الصلاة - وكذلك كان في رؤيته أن تحقّق هذا الهدف مرتبط بدعم عواطف الناس .

وفي خلاصة هاتين النقطتين ، نرى بوضوح أن إقامة الصلاة أبعد من علاقة خاصة أو شخصية بين الإنسان وربّه أو الله ، إذ إن لها مفهوماً اجتماعياً وتاريخياً ، وفي غير هذه الصورة ، فما هي الحاجة إذاً للدعم والعواطف؟

لن أتطرق هنا لقصة الهجرة التاريخية والمؤثرة في التاريخ ، والتي نرى في أماكن مختلفة في القرآن الكريم آيات تتحدث عن أبعادها وآثارها ، خصوصاً واقعة ذيح

(١) إبراهيم: ٣٥-٣٧.

إسماعيل عليه السلام. في هذه الأثناء لا يمكن المرور على دور الأب والابن في تجديد أو إعادة بناء الكعبة دون التوقف عنده.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

مكة والكعبة في عصر الفطرة

فجأة نشاهد انقطاعاً في المشهد التاريخي من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عصر البعثة - في القرآن الكريم - وكأننا نواجه سكوياً يثير التساؤل حول أحداث مكة! ولا نجد في الآيات القرآنية القليلة حول وضع مكة والكعبة قبل ظهور الإسلام إلا إشارات حول النكران؛ من قصة هجوم جيش أبرهة وإظهار قدرة الله في الدفاع عن الكعبة، وانتقاد للمشركين - وبالخصوص قريش - الذين لم يحترموا حرمة الكعبة، وحرمة الأشهر الحرم، وتصرفوا بها بأسلوب غير مقبول وابتدلوا مناسك الحج:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٢).

لست هنا في صدد الإكثار من الحديث عن الانحطاط الذي أصاب أهل مكة

(١) البقرة: ١٢٧-١٢٩.

(٢) الأنفال: ٣٥.

أيام الجاهلية، والذي ذكره القرآن الكريم في آيات متعددة، وأكتفي بالحديث عن هذا الانحطاط من خلال انعدام الأمن وانتشار الاعتداء على الحرمات حتى لأعز أبناء مكة والكعبة في الأرض المقدسة التي أكد على حرمتها وحرمتها القرآن الكريم، حتى للحيوانات، وخصوصاً من قبل زائري الكعبة المحرّمين.

والآن، وقبل الحديث عن ذكريات التضييق على المؤمنين في مكة بعد جهر الرسول ﷺ بالدعوة، وخصوصاً الظروف التي هيأت للهجرة، أستعيد نقطتين مفيدتين:

أمن مكة ونتائجه

إذا كانت سلسلة العداوة المثيرة مع دعوة الرسول ﷺ - وفي دائرة نتائج هذه الدعوة - قد وصلت إلى حدود الإقدام على قتل أعز أبناء مكة والكعبة وانتهاك حرمة الحرم، فلا يجب أن نعتقد أن أمن مكة في أيام الجاهلية قد فقد لونه بالكامل؛ إذ إن بعض الآيات القرآنية قد أشارت بوضوح إلى ذلك، وتؤكد أن الأمن في تلك الأرض أيام الجاهلية كان له وجود واقعي وواضح:

﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُخَاطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

هذه الآية تعبر عن أن أمن مكة - كامتياز واضح - واقع جلي ومعروف لدى الناس، وأن الناس كانت ترى أن هذا الأمن كان مترافقاً مع رونق اقتصادي جلي، وهو ما ورد في سورة قريش بشكل واضح. والمؤرخون الغربيون - على رغم التمييز في اهتمامهم بتاريخ مكة والكعبة بالمقارنة ببيت المقدس - كانوا مجبرين على

(١) القصص: ٥٧.

الإشارة لهذا الواقع، وبأن مدينة مكة كانت تتمتع برونقٍ تجاري.

وفي تجاوزٍ للتناقضات التي لوّثت الكثير من الآثار التاريخية بالتعصب ضد الإسلام والعرب. قدّموا تصوراً عن العرب على أنّهم بلا ثقافة، وكأنّ العرب كانوا غرباء عن الحضارة! باستثناء أجزاء من اليمن، لكنهم عند الحديث عن موقع مكة في التجارة يتحدثون عن أناس عرفوا العالم.

لست هنا في صدد الحديث عن كيفية تعاطي المؤرخين الغربيين مع الإسلام والعرب في هذا البحث الذي أقصره على ما يمكن أن أستند به على القرآن الكريم.

ما يمكن أن نراه في العديد من آيات القرآن هو ما تمتعت به مكة من أمن، والرونق الاقتصادي عن طريق التجارة، وبالتفكير في نتائج هاتين الميزتين ندرك خطأ الصورة المغرضة التي أشرت لها.

إن حياة الناس وعلاقاتهم في زمن الجاهلية كانت ممزوجةً بالقبايح والنواقص الكثيرة، والتي سأشير إلى بعضها بالاعتماد على عددٍ من الآيات في القرآن الكريم، والدافع هو ما أشرت له من أن الدفاع عن أهل مكة، ليس سوى تذكير بالتعصب ضد العرب المتوافق مع السياسة الصهيونية، والهادف إلى تحريف الوقائع التاريخية بشكل جلي؛ فدار الندوة في مكة وسقيفة بني ساعدة في يثرب، تدلّ على دور التشاور في القرارات الاجتماعية المهمة، وعندما يشاهدون أو يجدون مثيلاً لهذه المؤسسات أو لمثل المنافسة الأدبية في سوق عكاظ في أيّ أرضٍ أخرى، يعمدون إلى تضخيمه واعتباره أنموذجاً للديموقراطية والبلوغ الأدبي! وأنا هنا مجبر على تقصير الحديث عن الثنائية المسيّسة في الكتابة الغربية للتاريخ، على أمل أن نرى مساهمة العالم الإسلامي في محاربة هذا التحريف.

ثقافة الأخلاق والاعتقادات الدينية

إذا ما التزمنا في هذا المجال أيضاً بإطار الآيات القرآنية والأسلوب السابق،
يمكننا القول: إن ثقافة وأخلاق أهل مكة لم تكن بعيدةً والظروف الاقتصادية التي
كانت سائدةً.

وخلاصة هذه الآيات في القرآن الكريم تشير إلى مكة بميزتين: المدينة الجافة
والمحرقة التي شكلت للبعيد والمحرومين جحماً كلاً ألم وعذاب، وكذلك مكاناً للربح
والمال، وجنةً لبعض الأشراف القلائل! خاصةً إذا توقعنا أمام آيات الربا
وارتباطها بآيات النفاق^(١)، والتي تذكّرنا باختلال مسيرة التاريخ.
ونتصور مجموعتين من الناس تعيشان في ظروفٍ مختلفة:

(١) البقرة: ٢٦٠-٢٨٠؛ وآل عمران: ١٢٩-١٣٦.

متمولون يمتصون دماء المحرومين حتى الرمق الأخير بأرباح قروض مضاعفة! وأناس يعيشون في براثن الفقر، يدفعهم الخوف من الفقر إلى وأد وقتل أعز أولادهم^(١)، على الرغم من أن قتل البنات (وأدهم) في الجاهلية كان فيه أثر من العداة لهنّ والغيرة الشديدة والمفرطة .

الإلّا أن القرآن الكريم قد أكدّ في سورة الإسراء على علاقة ذلك بالفقر، وفي هذا الإطار فإن كتاب التاريخ المتوافقين مع اليهود المعادين للعرب قد صوروا الماضي بطريقة كان لها الأثر السيء في صياغة الأفكار والعقول. وكان المرأة في حياة العرب تلك الأيام لم تكن تحسب إنساناً!

لا أنوي هنا أن أدخل في بحث مسائل فرعية، وأكتفي بالإشارة إلى أنه إذا ما كانت مكانة جميع النساء على هذا النحو، فكيف كان لسيدة مثل أم المؤمنين خديجة عليها السلام كل تلك الإمكانيات لتستخدم وتوظف الكثير من الرجال؟

على أية حال، في تلك الحياة الثنائية إلى جانب الاختلافات الطبقية، فإن المرأة والخمر والربا والميسر قد ساعدت على تعميق الظلم في علاقات الناس بعضهم ببعضهم الآخر.

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾^(٢).

وأشير إلى أنه إذا كانت الخمر والميسر والأزلام من الشرك، فإن كل واحدٍ منها أيضاً يشكّل سبباً أو عنصراً مدمراً، ولا يجب أن ننسى أن هذه الأمور كانت تشكّل جانباً من ثقافة تلك الأيام! لكن عندما يرتبط الإدمان على شرب الخمر

(١) الإسراء: ٣١.

(٢) المائدة: ٩٠.

مع الميسر أو القهار فإن تدميره يكون مضاعفاً! واليوم نرى أن أصحاب حانات القهار يستغلون الخمر والسكر إلى جانب المرأة ليضيفوا على القهار رونقاً! وإذا استذكرنا هنا أن القرآن الكريم في سورة المائدة قد تحدّث عن علاقة الخمر والقهار ببعض مظاهر الشرك، فإننا ندرك أن الرسالة الثقافية الأقرب إلى القلب من وراء ذلك هو الحديث عن أشياء تنجّس مائدة النعم الإلهية.

شعر الشعراء وسجع الكهان وأوراد السحرة

في تلك الأرض المقرونة بعنف السيف، كان للشعر والسجع مكانتها التي تدعو للتوقّف عندها، فكلّما تأملنا في منطق المعارضين للرسول ﷺ، وكما ورد في كثيرٍ من الآيات القرآنية، نجد أن مكة كانت من الناحية الأدبية كالقمة الشامخة، وعلى ضوء آياتٍ من القرآن الكريم - من ضمنها جزء من سورة المدثر - نرى أن مكان ولادة البعثة يعجّ بالمحافل الأدبية التي لم تكن غريبةً عن الأدبيات القرآنية، والأثر الذي تركه طنين رسالة وأدبيات القرآن الكريم من علامات وآثار واضحة فيها. وكذلك الحديث عن متكلمين مدققين وما ذكر بإعجاب عن سياستهم وحيلهم في إبطال أثر ودور القرآن.

كنت أتمنى عند كتابتي لهذا البحث أن يكون في متناولي متحفٌ كي أصوّر أدبيات تلك الأرض، لقد بقي لنا من تلك الأيام آلاف اللوحات بحاجة إلى إعادة اكتشاف دقيق وعميق، كي نكون أقدر على معرفة الآيات القرآنية بشكلٍ أفضل. في هذه الحالة، نرى أن الكثير من التعاليم القرآنية قد نزلت لأجل إحداث تغيير في تلك الأرض، ونستطيع معها إدراك عدّة نقاط حول ما كان يجري في أرض ولادة البعثة في زمن نزول القرآن الكريم، والمثال، إذا كنا نشاهد شعار

الدعوة إلى الدين الحنيف في الأدبيات القرآنية، فإن ذلك يقودنا حتماً إلى واقع أن شعار الدين الحنيف في تلك الأرض كان شعاراً معروفاً وجذاباً، وإذا كنا نعتبر أن الاعتقاد الديني للناس كان مختلطاً بالخرافة، فإن علينا أن ننظر إلى الوجه الآخر للعملة.

من خلال التوقف أمام ما جاء في القرآن الكريم حول الاعتقادات والثقافة والاقتصاد والأخلاق والتغذية والصحة والآداب والعادات، نتوصل إلى إدراك منشئها في الجاهلية، خاصةً إذا ما كانت نظرتنا تأخذ بعين الاعتبار ترتيب نزول الآيات.

في نظرةٍ أخرى، فإن علاقة أشرف وسادة مكة مع أهل الكتاب تستدعي التوقف عندها والتأمل، ففي تأكيد القرآن الكريم على بعث الرسول ﷺ من الأميين، ما يساعدنا على معرفة مدى الفساد الذي كان يضع العلم والأدب في خدمة ظلمي الجاهلية، وكان الدين والقانون والأخلاق قد استغلت - كقيدٍ وسلاسل - لفرض السلطة الطبقية:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

إن مثل هذه الآيات هي بمثابة نافذة لرؤية المجتمع الذي نزلت فيه دعوة الرسول ﷺ، ولذا أو تعداد كل الآيات نحن بحاجة إلى تأليف كتب كثيرة، لذا

(١) الأعراف: ١٥٧.

سأكتفي هنا بذكر هذه النماذج .

وفي إدامة النظرة التاريخية حول مكة، يجب أن نتوقف عند علاقة تلك الأرض مع يثرب، العلاقة التي مهّدت للهجرة والتحوّل:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِئْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾^(١).

الهجرة نقطة تحوّل في تاريخ مكة

لا أنوي هنا أن أناقش موضوع هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، وسأكتفي بالتوقف عند الأثر أو التحوّل الذي تركته هذه الهجرة النبوية في تاريخ مكة؛ فإذا اعتبرنا أن تلك الهجرة التاريخية تشكّل الخطوة الأولى نحو تأسيس الحضارة الإسلامية، ففي رؤية أخرى أو ثانية، كانت خطوةً مصيرية في إطار تحرير أرض مكة من سلطة الظالمين الذين لوّثوا مكة والكعبة بالشرك.

والآن، وقبل النظر إلى نتائج الهجرة النبوية وبالترافق مع مصير مكة، يجب علينا أن لا نغفل عن الدور المهمّ لموسم الحج في تبادل التجارب.

وهنا، لسنا بحاجة إلى التذكير بأن معرفة يثرب بالدعوة الإسلامية لم تكن مفصولةً عن موسم الحج؛ من هذه الرؤية، نرى أن موسم الحج يمثل مناسبةً قيمة ومهمة لما يوفره من أرضية للتبادل الثقافي ونقل المعرفة بين الناس.

(١) الإسراء: ٧٣-٧٤ و٧٦-٧٧.

وهنا، أشير إلى نقطة غير معروفة من الآية المشهورة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ (١).

مفسرو القرآن الكريم، وفي قراءتهم لمعاني هذه الآية، توقفوا عند جزء منها هو ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، بشكل أثر على جاذبية ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فيها، وهنا أعتقد أن المعنى أو الرسالة الأساس لهذه الآية ليس سوى (التعارف)، الذي يعبر عن تربية قرآنية.

وهنا نشاهد أن نظرية حوار الحضارات في مقابل تصادم الحضارات في الحاضر قد جذبت الكثير من محبي السلام في العالم، وهنا أتوجه بالسؤال لعلماء المسلمين، ألا نرى في تأكيد القرآن الكريم على تبادل المعرفة - كعنوان لفلسفة التعدد المرتبطة بالأرض والدم - أنها تبطل نظرية تسعير الحرب؟ ألم يعلن القرآن الكريم - بكل صراحة وبأسلوبٍ شفاف - أن في تعدد وتنوع الحضارات والمجتمعات أصلٌ مشترك يربط جميع الناس مع بعضهم، حتى مع وجود اختلاف في الأرض والدم والقبائل والشعوب، وأن عليهم أن لا ينسوا هذا الأصل المشترك؟ إن فلسفة هذا التعدد والتنوع ليس التفاخر الذي يحمل بعضاً من معنى التكاثر ويوفر أرضيةً لاستعادة تفاخر الجاهلية^(٢)، بل الأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون هذا التنوع ذريعةً للتعارف بدلاً من التفاخر الذي يسبب الحرب.

أختم هذه النقطة أو المسألة الإنسانية والعالمية فيما يتعلق بشعار الإسلام بالقول: إن موسم الحج، يشكل فرصة ذهبية منقطعة النظير لزوار الكعبة، كي

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أنظر سورة التكاثر.

يستفيدوا من قطرات هذا المحيط العظيم وتلاطم أمواجه في سبيل تكامل الأفكار والتجارب المتنوعة فيما بينها.

من هذه الرؤية، أعتبر أن موسم الحج أفضل فرصة لا يجب أن ننسى الشكر عليها، تجربة في التبادل الثقافي، في أجواء سليمة بعيدة عن الجدل والانحراف.

والمثال البارز والتاريخي هنا هو ارتباط عدد من قبائل يثرب بدعوة الرسول ﷺ، إذا نظرنا بهذا النحو، فإننا ندرك دور موسم الحج، ليس فقط كنقطة تحول في تاريخ مكة ويثرب، بل كتمهيد للحضارة الإسلامية، ونقطة تحول أيضاً في تاريخ الحضارات.

أسئلة حول أرضية الهجرة النبوية

إذا تجاوزنا جميع ذلك، فإننا نواجه أسئلة حول أرضية الهجرة النبوية لا يمكن تجاهلها، فإذا نظرنا إلى قصة الهجرة من نافذة الآيات في سورة الإسراء، نرى أن الحديث عن طريقين غير معروفين - قبل الهجرة - لم يتطرق إليه أصحاب السير والمغازي، وكذلك المفسرون الكبار.

في تلك الآيات، يجري الحديث عن مساعي المشركين لجرّ رسول الله ﷺ إلى منحدر صعب، ﴿وإن كادوا ليفتنونك...﴾، وهناك حديث عن مساعٍ أخرى لفصل أعزّ أبناء مكة عن الكعبة ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها...﴾، وحتى الآن لم أشاهد في السير والمغازي وكذلك التفاسير أي أثر لرؤية جامعة أو شاملة لمجموع هذه الآيات.

لا أريد هنا أن أدخل في مناقشة مسألتين مجهولتين تعبّران عن علاقة الهجرة النبوية بطريقي: المساومة والقطيعة، مكتفياً بالإشارة التالية:

في إعادة قراءة تاريخ الإسلام، يجب البحث عن الفتنة التي كان بإمكانها أن تدفع الرسول ﷺ أمامها، ألم يكن الرسول ﷺ أمام ضائقة أجبرته على الهجرة. وبتعبير أوضح، ما هي المقترحات التي قدمها مشركو قريش ودفعت الرسول ﷺ في ظل العصمة إلى رفضها؟

الجواب على مثل هذه الأسئلة يتعلّق أو يرتبط بإعادة قراءة تاريخ الإسلام على ضوء الآيات القرآنية، وبمشاركة كلّ المؤرخين الأحرار في كل العالم الإسلامي، ولا مجال هنا سوى التذكير بمثل هذه الضرورة.

وبغض النظر عن ذلك كلّ، فإنّ ما يتعلّق بتاريخ مكة في القرآن الكريم، هو العلاقة بين الجهاد في عصر البعثة مع تحرير مكة من السلطة الطبقية لأشراف وسادة مكة قبل الإسلام وتطهير الكعبة من رجس الشرك.

أستميحكم العذر أن أشير إلى نقصٍ آخر في إطار ضرورة إعادة قراءة تاريخ الإسلام، وهي أن المؤرخين الكبار قد وفروا لنا مصادر قيّمة عن السيرة والمغازي، لكنهم لم يعتنوا أو يهتموا بتصنيف حروب التاريخ الإسلامي.

والنقص الأوضح، كان حول الغزوات والسرايا التي وردت في النصوص التاريخية بشكل متفرق وموزع من دون الاهتمام بانسجامها وما ترمز إليه، وأعتقد على ضوء الآيات القرآنية، أن جهود عصر البعثة كانت تتمحور حول تحرير الكعبة من سلطة ظالمي قريش.

من الواضح أنني لا أستطيع أن أدخل في شرح مثل هذه الفرضية هنا، وأكتفي بالإشارة التالية: لقد بيّن القرآن الكريم مشروعية هذه الجهود التي أراقت الدماء في مقابل ظلم المشركين وكذبهم، وهم الذين أخرجوا أبناء مكة من الحرم الإلهي الآمن:

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُنَافِتُونَ بِآثِمَاتِهِمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدْمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيُنصَرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

تحرير مكة، في فلسفة الجهاد

إن أثر أو نور هذه الآيات يتجلّى في سورة الحج، التي تعبّر عن العلاقة بين الجهاد في عصر البعثة وبين تحرير مكة، الأرض التي أهدت لتاريخ الحضارة

(١) الحج: ٢٩.

الأمن، والتي بني فيها أول مركز قامت أو تأسست فلسفته على الدفاع عن حقوق الإنسان ومصالحه، بحيث لا تجتمع سلطة الغرباء مع التوحيد والكعبة، أولئك الذين كانوا مدينين لأمن مكة في مختلف الظروف، من دون أن يستحقوا أو يتمتعوا بأهلية إحياء وعمران الكعبة .

رواية وسقاية زائري الكعبة، وإطعام الحجيج، وكساء الكعبة وسدانها، والدفاع عن تلك الأرض، كانت لبّ وجوهر حضارة مكة، كما لو أنها قد أوجدت نظاماً فيما يتعلق بشؤون بيت الله وملجأ الناس وتذكار إبراهيم الخليل عليه السلام. مع ذلك كله، فإن غربة متولي الحرم عن روح الحج وفلسفة بناء الكعبة، كانت إلى درجة يصدق عليها قول شاعر إيران وخواجة شيراز المفوّه (حافظ):

لقد ضرب الحاجب الجميع بسيف الخمرة، وأخرج من الحرم خمرًا!

لقد شكّلت هذه النقطة المدخل المنطقي للقرآن الكريم للتأكيد على مشروعية الجهاد في عصر البعثة، وهنا لا نستطيع أن نتطرق إلى الرموز والدلالات المجهولة للمعارك الدموية التي دفعت أعداء رسول الرحمة صلى الله عليه وآله لاتهمه بالعنف، والحال أن فلسفة كل هذه المعارك لم تكن سوى وضع حدّ للحرب والعنف:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَاِثْمًا مِّنَّا بَعْدُ وَإِثْمًا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾^(١).

أرى أن رسول الرحمة صلى الله عليه وآله وأصحابه قد تلقوا أمراً بالحرب من أجل تحقيق شعار ومبدأ السلام، ولكي يخلصوا الإنسان والحضارة الإنسانية من وزر الحرب، فكيف يمكن اتهام الحرب بأنها عنف فيما فلسفتها تقوم على السلام والعداء للعنف؟!

(١) محمد: ٤.

في الرد على أسئلة من هذا القبيل يجب القبول بالاختلاف بين حروب عهد الخلافة - خاصةً بعد انكسار قفل الفتنة - مع حروب عصر البعثة، والاعتراف بالانحرافات إلى جانب السعي لإبعاد صفة الدموية والعنف عن الإسلام المحمدي ودين رسول الرحمة ﷺ.

النصر الساطع وبطولة (حماسة) السلام والأخلاق

لا أستطيع أن أشرح هنا جهاد عصر البعثة في علاقته بتحرير مكة، لذا علي أن أتغاضى عن نقاط كثيرة واضحة وغير معروفة، لأشير إلى بطولة الأخلاق والسلام التي فكّت طلسم فهم سلام وأمن مكة، وحددت مصير أرض هي قبلة المسلمين؛ أي الحديث عن صلح الحديبية الذي سمّاه القرآن الكريم بالفتح المبين:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَ يُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾^(١).

لو لم يكن لديّ خوف من الإطالة بهذا البحث، لكان من الممكن لي أن أشير إلى نقاط حول تقسيم الفتوحات من رؤية قرآنية، غير أنني أكتفي بالإشارة إلى أن التجربة المرة للرسول ﷺ في علاقته بالمشركين، وما كان فيها من ليونة وبطولة أخلاقية، على الرغم مما تعرّض من ظلم وعنف من أعدائه، لم تكن عصيةً فقط على فهم المعاصرين للبعثة، بل ما زالت عصيةً أيضاً على الفهم حتى يومنا هذا، برغم مرور قرون عليها، ما يسبّب عدم إدراك أبعاد وأسرار انتصاره الباهر والعظيم هذا.

(١) الفتح: ١-٣.

كلّ النصوص التاريخية والسّير والمغازي تحدّثت عن غضب واعتراض عددٍ من أصحاب الرسول ﷺ، عندما كانوا يرون تصرّفه الرحيم في الردّ على عنف وظلم سادة قريش، وما لم يذكر في هذه النصوص تلك الأبعاد العميقة لبطولة السلام والأخلاق المحمدية.

وأشير هنا إلى بُعدٍ من أبعاد الفتح المبين لا يكمن في البعد الظاهري الذي اهتمّ به كتاب التاريخ حول فتح مكة، من دون الالتفات إلى نتائج صلح الحديبية.

فإذا توقفنا قليلاً أمام الأحداث المختلفة لما بعد هذه البطولة العظيمة، ندرك أن أبرز نصرٍ في تاريخ الإسلام قد تحقّق بمعجزة الأخلاق لا بجدّ السيف، ونرى أن أبرز رجال السياسة والسيف قد التحقوا بمعسكر الرسول بعد صلح الحديبية، كإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص - بعد مدةٍ قصيرة منه - وهو تعبير عن أن معجزة الأخلاق هي التي نزعت أسلحة العدو.

ولأنّه لا يمكن في هذه العجالة أن نستفيض في الحديث عن هذه البطولة التاريخية والمصيرية كما يجب، سأشير إلى نقطة من السيرة النبوية اعتبرها رمزاً لهذه البطولة، لكن قبل ذلك لا بد من التطرّق إلى نقصٍ آخر في كتابة السيرة هو:

عدم اهتمام كتاب السيرة بالمصادر القرآنية

الكبار الذين بذلوا جهوداً للكتابة حول السيرة النبوية وتركوا لنا آثاراً قيمة، كأنهم أغفلوا أكثر المصادر ثقةً في هذا المجال، لقد وجدت أكثر من مئتي آية في القرآن الكريم، كل واحدةٍ منها تغطّي مجالاً من السيرة النبوية، وأذكر هنا أنموذجاً يدعم بطولة صلح الحديبية الخالدة:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ
بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُوْحَظٌّ
عَظِيمٌ﴾^(١).

فبلا شك ، هذه الآيات تتضمن أحد أبعاد المنطق الحاكم على سلوك
الرسول ﷺ ، أية ردة فعل هي أفضل في مواجهة السيئة؟ ثورة بعيدة عن التصور
تسقط بيد العدو ، فإذا اهتممنا بسلوك رسول الله ﷺ انطلاقاً من هذه الآيات التي
تزيد على المائتين ، والمتعلقة بالسيرة النبوية ، فإننا سنجد نماذج على ذلك .

في الآيتين السالفتين ، نجد علاقةً بين معجزة الأخلاق وبين الاستثمار ،
فالاستثمار في الأدبيات الحديثة من المقولات الاقتصادية ، أي الحديث عن
الاستفادة من مصادر مثل الأرض والماء والطاقات المختلفة ، وقتته ما نراه ، في إعادة
إنتاج الطاقة الملوثة ، لكن هاتين الآيتين تتحدثان عن الاستثمار البعيد عن التوقع
والذي فيه حظٌ عظيم ، أي تبديل العداوة إلى صداقة ورحمة ، خلخلة مركز الحرب
وإسعار النار وتحويله إلى مركز للبناء .

صلح الحديبية ، أنموذج واضح لمثل هذه المعجزة في تاريخ مكة؛ فمعجزة
الأخلاق كانت الردّ الأفضل على السيئات والقلوب المريضة بالتعصّب والعداوة
نحو الإسلام ورسول الرحمة ، وتبديلها إلى مركز للحب؛ وإسلام خالد بن الوليد
وعمر بن العاص شهادة واضحة على هذا الواقع؛ فخالد صاحب السيف الذي
هزم جيش الإسلام في معركة (أحد) ، وأنزل أشدّ الألم والجراح على قلب
الرسول ﷺ وأصحابه ، لكنّه تحوّل إلى قائد فدائي في خدمة الإسلام بمعجزة
الأخلاق .

(١) فصلت: ٣٤ .

بيعة الرضوان

تجديد بيعة أصحاب الرسول ﷺ معه - فيما يتعلّق بصلح الحديبية - يعبر عن أهمية هذا الحدث كنقطة تحوّل في تاريخ الإسلام وتاريخ مكة:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ...إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾^(١).

لا أنوي أن أعرض ما توصلت له - في اعتقادي - على ضوء هذه الآية في هذه الفرصة، فالواضح هو الاختلاف بين نظرة أولئك الذين يقيّمون الوقائع من خلال حجاب الظاهر، وبين النظرة التي لا تنحسب حتى في حجاب الزمان والمكان؛ فالرسول ﷺ قبل صلح الحديبية رأى في المنام أنّه داخل هو وأصحابه إلى مكة، غير أنّ ما حدث من تطوّرات، ومن الكذب والظلم الذي مارسه أشرف وسادة مكة في مقابل نعمة رسول الرحمة ﷺ قد أثر على اعتقاد الكثيرين بالشك والترديد.

لم يمرّ وقت طويل، حتى أزاح فتح مكة السلمي من دون إراقة دماء صداً هذا الترديد والشك، وشاهدوا بالعين ما رآه رسول الله في المنام أو الحلم. وأرى نفسي هنا مجبراً على التغاضي عن نقاط صغيرة وكبيرة، وأن أختتم هذا القسم بالإشارة إلى أعظم حجّ في تاريخ مكة.

حجّة الوداع

في المسافة الفاصلة بين صلح الحديبية وحجّة الوداع، وقعت أحداث كبيرة في تاريخ الإسلام وتاريخ مكة، مثل عمرة القضاء، وفتح مكة، والبراءة من

(١) الفتح: ١٨.

المشركين، وتطهير حرم الكعبة من آثار الشرك، ونجد أنها خصّصت بآيات في القرآن الكريم؛ لذلك أكتفي بما قلته وما كتبتة حتى الآن حول «صورة مكة في القرآن الكريم».

ومن الواضح أن ما كتبتة سيكون مدخلاً لأبحاث جديدة، أبحاث يجب الاهتمام والقيام بها في إطار إعادة قراءة تاريخ الإسلام وتاريخ مكة بمشاركة علماء العالم الإسلامي.

والآن أتطرق إلى آخر حجة تاريخية للرسول ﷺ، والتي تعتبر أكثر الحجج ذكرياتٍ في تاريخ الكعبة ومكة، أرض مكة مكان ولادة دعوة الرسول ﷺ الذي دعا إبراهيم الخليل ﷺ ربّه أن يبعثه، ولأنّ الحديث عن تلك الأرض التي شهدت أعظم مراسم حجّ في حجة الوداع؛ فإذا اعتبرنا هذا الحجّ حسن الختام في عصر البعثة فلا نكون قد قلنا جزافاً، خصوصاً إذا ما توقفنا أمام شأن نزول آية إكمال الدين، التي رويت مقرونةً بحجة الوداع:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَدِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾^(١).

في النظرة الأولى، قد لا نجد علاقةً بين هذه الآية والآيات التي تسبقها والتي تليها، إلا أنني أعتقد خلاف ذلك، فبالعودة إلى النقاط المحورية التي تدور حولها سورة المائدة، أرى أن هذه الآية كضوءٍ منيرٍ يجب أن يشعّ على مائدة النعم الإلهية غير المحدودة.

إذا ما كنت لم ألتزم في هذه الكتابة بإطار الآيات القرآنية، فإنّي أضيف هنا نقاطاً حول حجة الوداع، وأشير إلى التالي:

(١) المائدة: ٣.

في تاريخ مكة وتاريخ الإسلام المحافظين، لا نجد مثيلاً لتلك الأيام التي سيطر فيها هذا النشاط والحيوية على تلك الأرض، لكن سنة الله التي لا تتغير قضت أن تكون أعذب مدينة في حياة هذا العالم معجونةً بالمرارة؛ فقد رافقت هذه المراسم العظيمة ذكريات من ظلال الحزن، ففيما كان معظم أصحاب الرسول ﷺ في أوج نشاطهم وحيويتهم، وكانوا يحتضنون الكعبة في وسطهم كالفص، ويقومون بمناسك الحج مع رسول الله، في أوج هذه الفرحة التي لا يسعها الجسد، نالتهم حرقه حديث مرّ عن ألم الفراق، إن شرح تلك التجارب يجب أن نشاهدها من أقلام الفنانين بالاستعانة بالعلم والتحقيق؛ كي ينقلوا ويصوروا ذلك المشهد المثير.

مراسم الحج في سيرة الخلفاء الراشدين

كآخر قسم من هذا البحث، أشير إلى أنّ عظمة حجة الوداع شكّلت الداعم لمراسم الحج في تاريخ الإسلام، فبعد ارتحال الرسول ﷺ، شهد المسلمون هذه المراسم العظيمة كلّ سنة بحضور خلفاء الرسول ﷺ. وبالتوقف أمام الكثير من الأخبار، خصوصاً العائدة إلى النصف الأول من القرن الأول، نشاهد آثاراً لإقامة الحج في رؤية تراعي مصالح المجتمع.

فخاصّةً في أيام الخليفة الثاني - وعلى الرغم من اتساع الثروة والقدرة وأسلوب تعاطيه وارتدائه للألبسة المرقعة - في ذروة محبوبيته وأوج الثروة والاقترار وذكره على كل لسان^(١)، نشاهد آثار تجرّبه القيمة في التاريخ السياسي، فقد استفاد من الحج كفرصة ليطلع ويطلع قادة المسلمين في هذا الاجتماع على ما

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر، ج ٤٤.

يجري في العالم الإسلامي، وكذلك ليجد المواطنون فرصة ليخبروه بالحلو والمر من أخبارهم، وكذلك ليشاهدوا صورة حية من صور علاقة أركان وأقسام المجتمع في التعامل البناء.

وفي الروايات أيضاً حديث عن غضب الخليفة الثاني مع عمال وكوادر الدولة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»، وكذلك الحديث عن تأكيدات المتكررة حول حقوق الناس والمواطنين.

ومن جملة الأخبار، حديثه حول الإصلاحات كان قد سُمع منه في آخر سنواته، وقد تحدّث عن الاختلاف الطبقي في المجتمع وانتقده ووعده بأنه إذا بقي ليهدم هذا الجدار أو هذه الفاصلة.

وللأسف، ومع إراقة دمه، كسر قفل رتاج الفتنة ودخل تاريخ الإسلام في أتون الفتن التي لا يتسع لها هذا البحث، ولكن السؤال هو: هل إن الإصلاحات التي كان يتطّلع إليها هي تلك الإصلاحات التي بدأ تطبيقها بعد مقتل الخليفة الثالث، أسئلة من هذا القبيل والإجابة عليها نتركها لفرصة أخرى، ودافعي من ذلك هو السعي للإشارة إلى الاختلاف بين مراسم الحج في العهد العلوي وما كان قد سبقها، ففما كان الخلفاء الآخرون - إلا في ظروف استثنائية - يقومون بحضورهم على الاهتمام بمجالل الحج، كان الإمام علي عليه السلام الذي يعتبر - وبناءً على الأخبار والروايات ولید الكعبة - محروماً من الحضور في مراسم الحج، وكان مجبراً على تكليف نائب عنه كضريبة كبيرة دفعها من أجل مواجهة الحرب التي فرضت عليه وعلى الإصلاحات التي بدأها، مع ذلك، فقد قال في آخر لحظات حياته حديثاً بقي معلقاً بالأذان:

«الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنها إن تركت لم تناظروا».

مقارنة الحج في الظروف الحالية مع الحج المطلوب

أليس هناك فرق فيما نشاهده اليوم من مراسم للحج عن الحج المطلوب؟ لست في صدد أن أجيب عن هذا السؤال، لكنني أشير إلى أن العالم الإسلامي اليوم وارثٌ لأرض وبيت ومراسم عظيمة مليئة بالأخبار والأحداث الباعثة على الافتخار، من عصر إبراهيم عليه السلام إلى عصر البعثة وصولاً إلى يومنا، وكلنا يرفع رأسه بهذا الفخر الذي لا بديل له أو نظير، مع ماضٍ مليء بالفخر أيضاً.

مع ذلك، يجب أن نأخذ هذا الهم على محمل الجد، وهو الحذر من أن نصاب بالتقصير أو التقاعس في استثمار هذا الكنز أو الثروة الفريدة؛ ومن دون أن أطيل أشير إلى أن على العالم الإسلامي أن يعمل على توضيح دور الكعبة في الدفاع عن حقوق الناس.

في البداية، تيمّنت بالافتتاح بآية ترى الكعبة أول مركز وضع لحماية حقوق الإنسان، وفي النهاية أيضاً أتمنّى بالآية الكريمة التالية لأختم بها كلامي:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس...».